خفقات قلب

بقلم
عبد الحميد جودة السحار

دخلت غرفتها لتنام . فراحت تلقى على كل ما فى الغرفة نظرة وداع . انها عاشت مع هذه الاشياء التى تملأ الغرفة سنين طويلة، حتى صارت قطعة منها ، هذا الصوان وهذه المرآة وهذا السرير وهذه الشماعة وقطع ملابسها التى علقت عليها ، كل اولئك قريب من نفسها ، حبيب اليها .

وترامى الى سمعها صوت امها واصوات اخواتها فارهفت السمع كأنما تصغى الى لحن شجى ، فخفق قلبها خفقات كلها اسى وطفرت الدموع من عينيها ، فهذه آخر ليلة تمضيها فى هذا البيت ، بين اهلها ومع اشيائها التى تحبها ، قبل ان تحمل الى بيت الرجل الذى سيصبح بعد ان يمضى العقد ويسدل الليل رداءه .

انها احبت عصام وهو فارس احلامها وكادت تطير من الفرح يوم جاء يخطبها بيد انها فى هذه الليلة تستشعر خوفا ملأ فؤادها ، انها تخاف ذلك المجهول الذى ستقدم عليه ، تخاف ان يخون حب عصام أو يأتى يوم يشيح بوجهه عنها .

والقت بنفسها فى الفراش وصوت يرن فى اعماقها : لا . عصام يصدق ولن يأتى ذلك اليوم ابدا . ولم يهدأ قلبها بل اشتد وجيبه وزادت ضرباته حتى احست انه يكاد يقفز من بين ضلوعها .

وشرد خيالها وراحت أيام حياتها تمر امام مخيلتها واذا بلحظات الوداع التى دامت مرارتها تطفو على سطح ذهنها . وراحت نفسها وهى صغيرة تلهو فوق سطح الدار مع خروف العيد . انها احبت ذلك الخروف حبا جما حتى انها فى هذه اللحظة تراه بوضوح وهو يشد اليها بعينيه اللتين كانت ترى فيهما الترحيب بقدومها ، كانت تقدم له الطعام قبل ان تتناول طعامها وكانت

السعادة تغمرها كلما جرت فوق السطح وراح يعدو في مرح خلفها . كان اول صديق تفتح له قلبها ، حتى انها كثيرا ما كانت تحلم به في منامها .

وجاء اليوم المشئوم ، يوم سحبه الجزار امام عينيها وذبحه ، ان الصرخة التي صرختها في ذلك اليوم عادت تدوي في اذنيها ، ودمه المسفوح سراعي لخالها فيعيد القصة الى خلقها ، ويعر عليها ويجعله ينقبض أسى وحزنا .

ورات اباها وهو يحملها ويضمها الى صدره في حنان ، ورن في اذنيها صوته وهو يقول : « لا تخافي .. هذا حروف العيد . نذبحه لناكله » واحست وجهها في صدره وهي تجهش بالبكاء ، لا خوفا من الدم المراق ، بل حزنا على حبيبها الذي ذبحوه ، وكان اول فراق تجرعت غصته في حياتها .

ورات نفسها وهي صغيرة ، تنطلق في سيارة هي وامها وابوها واخوها في طريق صحراوي ، كانت سعيدة بالرحلة ، وكانت تسأل امها وهي في الطريق عن كل ما تقع عليه عيناها ، بعد ان امها كانت تأمرها بالصمت ، فكانت تمسك لسانها على كره منها دون ان تصرف شيا منطقيا لذلك الامر ، وكان ذهنها الصغير يفسر ذلك بانه ضرب من التقشف الذي حمل عليه الوالدان !

وبلغت السيارة المطار وهبطوا منها ورفعت عيناها على طائرات راقدة على الارض . كانت هذه اول مرة ترى فيها طائرة . فالتفتت الى امها وقالت :

— ماما ، اركب الطيارة !

فالتفتت اليها اخوها وقال لها :

— تعالي معي .

وحملها وقبلها وترقرقت الدموع في عيني الام ، ولم تدر هي لذلك سببا ، وهمت بأن تسأل امها عن سبب بكائها الا انها خشيت ان تهرمها وتأمرها بأن تحبس لسانها في حلقها .

وحانت ساعة الوداع ، وراح اخوها يقبل امه واباه واختها ثم حملها وقبلها وسار الى الطائرة دون ان يأخذهما معه ، وبكت الام للفراق ، وبكت اختها الكبرى وارتسمت على وجه الاب ابات الحزن ، بينما راحت هي تصرخ وتتوارل وتقول :

— اركب الطيارة .. اركب الطيارة .

وغاب اخوها في جوف الطائرة واغلق الباب خلفه وطارت به الطائرة وعيونهم جميعا معلقة بها حتى ابتلعها الافق البعيد . فقفلوا عائدين دونه . لا يكاد ذهنها الصغير ان يعقله من الامر شيئا كثيرا .

وفي يوم جاء ساعي البريد يحمل رسالة ، اجتمع الام والاب واختها الكبرى حولها واذا بهم جميعا يتحدثون لحظة يرفعها الى عالم مجتمع ينفض عن اجنحته الصاعب حدثا كله شر ، وشاءت ان تشترك معهم في الحديث ، فسألت اباها قائلة :

— متى سيعود ؟

فقال الاب في صوت تكاد تسمعه في صغيرها اللحظة :

— بعد سنتين .

وراث ـ وهى فى سريرها ممدده ـ وجه الام الذى ارتسم عليه الشوق واللهفة والخوف والاسى ـ ارذلك الوجه المعبر الذى عكس فى لحظة كل تلك المشاعر لا يزال حيا فى ذاكرتها .

واصبحت الرسائل الواردة من اخيها ، شيئا مميزا فى حياتهم ، اذا جاءت افضل على الاسرة كلها البشر والامل . واذا تاخر ورودها كان طابع البيت الخوف والتوجس والقلق ، وتعلمت فى تلك الحقبة من حياتها ان ورقة تعد مع ساعى البريد قادرة على ان تثير فى النفوس مشاعر كثيرة متباينة

وراث نفسها وهى تحمل مرة اخرى الى المطار ، كان فى السيارة ابوها واخوها واختها ، انها لا تكاد تحس ان زمنا طويلا يقدر بسنتين قد مضى بين ذهابها الاول وهذا الذهاب ، انها فرحة لان اباها وامها واخيها فى ذلك اليوم تركوها تتزثر كما تشاء ، وكانوا جميعا يسارعون للرد على اسئلتها .

ووقفوا فى المطار ينظرون وهم يرمقون فى السماء ، وتركوها تجرى هنا وهناك ، وتفعل ما تشاء دون ان يمنعها احد ، وخطر على قلبها ان تجرى ناحية طائرة رابضة على الارض، تصعد اليها تكتشف ما بداخلها ، بيد انها خشيت ان يغلق بابها خلفها وتقلع بها كما اقلعت باخيها الى مجهول جعل قلبها الصغير يخفق بين ضلوعها خوفا .

وهبطت طائرة على الارض، وهرعت الاسرة الى السور الحديدى ، ووقفت تنظر اليها فى لهفة ، وحملها ابوها وهو يقول لها ان اخاها سيهبط من تلك الطائرة . واحست جسد ابيها يرتجف ، الا انها ظنت انه يداعبها فابتسمت وراحت تعبث فى اذنه .

وانطلقت من امها صرخة فرح اعقبتها انهمار دموع من عينيها ونداءات اقرب الى الغمغمة ابنى ـ ابنى . وراحت هى ترقب الهابطين على سلم الطائرة وهى تعجب فى نفسها وتتساءل كيف استطاع جوف الطائرة ان يتسع لكل هؤلاء الناس .

ووقعت عيناها على اخيها وهو يلوح لهم بيده فى سرور ، وراث اعمى المشاعر على الوجوه ، والتقت الاسرة بالاخ الذى عاد ، وكان عناق وكانت قبلات وعرفت ان بعض الفراق وان طال يعقبه لقاء حار للابد .

وتململت فى سريرها ، وحاولت ان تمرى النوم بالطواف بحجرتها ، بيد ان عينيها سرعان ما فتحتا وتطلعتا الى سقف الغرفة ، وشرد خيالها وارهفت اذنيها للاصوات الآتية من الماضى البعيد، انها تسمع فى هذه اللحظة صراخا وعويلا ترى ونفسها وهى تهض من سريرها الصغير مفزوعة وتجرى الى حيث يشتد الصوت وهى مرعوبة ويزداد رعبها لما ترى امها تجرى نحوها وهى تولول ثم تحملها وتقول لها :

ـ ابوك مات .. ابوك مات .

وانهمرت الدموع من عينيها لما رأته الجميع يبكون ، وذهبت الى حيث كان ابوها مسجى فى فراشه ، كان نائما ، اسدل عينيه واطبق فمه ، ولم يعد يسمع الصحيح المنبعث من حوله بينما كان يصحو من نومه اذا ما صار احد فى غرفته على اطراف اصابعه .

ونظرت الى ابيها فى استطلاع ، وراحت تتساءل فى نفسها : كيف مات؟ انها تذكر ان خروفها الذى أحبته قد مات بعد ان ذبحوه ، اما ابوها فهو نائم كما اعتاد ان ينام . ترى هل سيصحو فى الصباح ويقبلها كما اعتاد ان يقبلها كل يوم .

وجاء الصباح ولم يستيقظ ابوها بل وضعوه بعد ان لفوه فى قماش ابيض فى نعش وحملوه على الاعناق وخرجوا به من البيت بين البكاء والعويل، وبكت مع الباكين ، وفى المساء انتظرت عودته ولكنه لم يعد بعدها ابدا . وعرفت ان الموت يفرق بين الاحبه ، ويقوض هناءة البيوت التى كانت آمنة مطمئنه .

واحست غصة فى حلقها ، والدموع تبلل عينيها فنهضت من فراشها ، واخذت تدرع الغرفة جيئة وذهابا وهى تناجى روح ابيها :

ـ ابى .. ليلة رفاق الليلة القادمة كم كنت اشتاق ان تراني وانا فى ثوب الزفاف ، ابى اتحرق شوقا الى قبلة من قبلاتك الحانية التى كنت تضعها على خدى .. ابى ! انا واثقة انك بعدا ستكون معنا .. تبارك زواجنا انا وعصام . اتحبك عصام يا ابى ؟ . ابى احبه ، وانا واثقة من انك تحبه لانى احبه . ابى ! ليتك تستطيع ان تستنى بما يحبه لى قدرى مع عصام . انا واثقه يا ابى من ان مستقبلى معه سيكون كله سعادة وهناء . سيكون معى كما كنت مع امى . سيرعانى كما كنت ترعاها ، ولكنى انتقل الى الله يا ابى الا يتركنى انا واولادى كما تركتنا قبل الاوان .

ونظرت من خلال النافذة الى السماء وقالت فى حرارة وانتهال :

ـ يا رب ! يا رب ! يا رب !

ولم يتحرك لسانها بشىء وان كان قلبها قد اقسم بالتوسل الى الله ان يجنبها الترمل الذى دافت امها مرارته

وراحت تغدو وتروح فى الغرفة خافقة القلب ، شاردة اللب حرات نفسها وهى تلميذة فى المدرسة تلعب مع زميلاتها ، انها تجرى معهن وهى مسرورة ، وقد حدث ان ارتطمت وهى تجرى باحداهن ، فما كان من الزميلة الا ان لطمتها على خدها ، فهرعت زميلة اخرى الى المعتدية وقالت لها فى تعنيف :

ـ حرام عليك . انها يتيمة .

وكادت الارض تميد بها وهى فى الغرفة كما مادت بها فى ذلك الوقت ، احست ذل اليتم ، وملأت جوانحها سكينة آلم نفسها من كل الم اصاب جسدها فى يوم من الايام ، فقد برأت كل الجروح التى اصابت البدن اما جرح اليتم فقد ظل عالقا فى وجدانها يزداد عمقا مع الايام .

وتوقفت الغرفة وهى تتلفت فى شرود، ثم راحت تتمتم :

ـ اريد ان انام .. اريد ان انام .

وارتمت فى السرير واخفت عينيها بيديها واسبغت جفنيها ، الا ان ذهنها لم يغفل ابدا ، راح يوسوس لها بنكتة سمعتها يوما ، راح شحاذ يمر بالطرقات وهو يصيح « ارحموا يتيما عنده ثمانون سنة » . ورفت على شفتيها بسمة ، ودارت فى سريرها دورة وهى تقول :

ـ ولكنى لم ابلغ العشرين بعد .

عرفت اليتم قبل ان اذهب الى المدرسة

وعادت بها الذاكرة الى ايام موت ابيها ، انها بعد ذلك اليوم المشئوم

اصبحت تحاف ان تنام وحدها فى سريرها ، فكانت تهرع فى الليل الى احضان امها ؛ فكانت تجد عندها الامن . وعلى مر الايام تعلقت باحتمال كانت اذا سارت فى البيت سارت خلفها ، واذا خرجت تشبثت بها ، واذا نامت نامت معها فى سرير واحد .

وتذكرت ذلك اليوم الذى سافرت فيه امها فى رحلة مع مدرستها . حاولت فى تلك الليلة ان تنام فى الغرفة وحدها ، الا ان الرعب ملأ جوانحها . كان يخيل اليها ان الاشباح تتراقص فى انحاء الغرفة ، انها ستنقض عليها من السقف وستطبق عليها من الاركان ، وحاولت ان تصرخ بيد ان الرعب عقد لسانها ؛ فهمت من نومها مرعوبة وراحت تعدو وهى تتوقف من الفزع الى غرفة امها ثم الدست فى احضان امها وتعلقت برقبتها .

وطاف بذهنها عصام ، انه عند الليلة القادمة سينام معها فى سرير واحد ، انها سعيدة سيملأ عصام كل حياتها ، ترى ماذا تفعل لو اضطر العمل عصام الى ان يتركها وحدها ويبيت خارج الدار ؟ ودق قلبها دقات خوف وقلق ، وراح عقلها يعمل ، فاهتدت الى ان خير ما تفعله ان تعود مرة اخرى الى غرفتها هذه ، فقد قالت امها انها ستتركها كما هى لاستقبالها اذا ما فكرت يوما فى ان تبيت هى وزوجها عندها ـ زوجها ؟ عصام زوجها ؟ احقا ستصبح غدا زوجة من احبت وانها هى وعصام سينامان يوما فى هذا السرير الذى تمددت فيه واطلقت عنان خيالها لتعيش امتع احلامها ؟ يا طالما صمت لطفة فى هذا السرير وامطرته بقبلاتها

وضمت الوسادة اليها فى وجد ، وقبلتها فى هيام ، وقد اسبلت جفنيها لترى ما تشاء بعيون خيالها . آه . ما الذ ان يكون الانسان محبوبا ، وان يكون بين ذراعى من يحب ولو فى عالم الرؤى والاحلام !

وراحت تتذكر اول مرة قبلها فيها عصام ، كانا يسيران على شاطىء النيل جنبا الى جنب ، وكانت الشمس تغيب فى الافق البعيد والطيور تئوب الى اوكارها ، وكانا يتحدثان حديث هادئا ، بينما كان حديث العيون ساحرا ، كله سحر وبيان ، ورأت فى بريق عينيه ومضا حلوا تتدسس فى رقة الى قلبها فيحمله بحفق فى وجد وحنين ، وفى لحظة يرفعها الى عالم يفيض بالآمال . واستشعرت رعشة فى أن تذوب فيه ، ولم تعرف لما مال عليها وضمها اليه وقبلها قبلة استقرت فى اعماق وجدانها ، وكانت تتذوق لذة طعمها بروحها كلما شردت بافكارها واطلقت عنان خيالها .

ورن فى اذنيها صوته وهو يقول : « احبك ولن تكون لى حياة بدونك ، لا بد أن نتزوج » وتقدم بخطبتها من امها ، وفاضت سعادتها لما قالت لها أمها وهى تضمها اليها فى حنان « مبارك » وطارت افكارها اليه وجعل يتراءى لها ايما ولت وجهها ، وما عادت تسمع الا نبرات صوته الأسر الحذاب .

انه منذ ان عرفته وهو كل دنياها ، وما من شىء يشوب سعادتها الا ذلك الخوف الذى ينتشر بين جوانحها ، أتشفق على نفسها من فراق البيت الذى شبت فيه ام تخشى ما تخبئه لها الايام ؟

تركت اختها البيت بعد أن تزوجت وانها تحس انها تغيرت كثيرا بعد ان تركته ، انها تفقد اليه وقود الزوار ، تتحرك بحساب وتتصرف بحساب ، لم تعد تفعل ما كانت تفعله قبل الزواج انها تذكر ان اختها كانت تخطف منها طعامها قبل الزواج ، اما بعد أن تزوجت فقد اصبحت ترفض كل ماتقدمه اليها أمها في دلال . انها تحس في اعماقها ان روح اختها اصبح بالنسبة لروحته شيئا هاما ، اهم من كل من في بيتهم ، وانها تستشعر الساعة انها لو غيرت بين عصام ، وبين كل من في البيت لاختارت عصام ، ترى الى متى يستمر هذا الخال ؟!

وخفق قلبها خفقات ، وتذكرت روح اختها ، انها احست بنحوه غيرة بعد ان خطب اختها ، وعرفت أنه سيفصل بينهما يوما ، ويحمل اختها بعيدا عنها ، ان هذه الغيرة كانت تتحول في بعض الاحيان الى كراهية ، وكانت ترداد هذه الكراهيه كلما حاول روح اختها ان يترضاها ويداعبها ، كانت تصغر منه ، وترفض في اصرار الحلوى التي يقدمها اليها .

واحست راحة لانها ليس لها احب اصغر منها ، تصغر لعصام بعض المشاعر التي كانت لروح اختها . انها كانت طامة في مشاعرها ولكن من ذا الذي يبصر الاعماق بالحقائق ؟ ورن في حلوقها صوت يردد : « الايام . الايام . الايام » .

وراح خيالها يجري وراء فكرة جديدة ، انها في مثل هذه الساعة من الغد ستصبح زوجة ، ترى ما الذي تعرفه عن حقيقة الزواج ؟ انها التقطت من مجالس امها مع جاراتها بعض اشياء معلقة بالصباب عن الزواج ، وسمعت من بعض زميلاتها في المدرسة اقاصيص عن العلاقة بين الذكر والانثى ، كانت تثيرها احيانا . وكانت تملأ قلبها بالرعب احيانا وقرأت في بعض الكتب شرحا لا يشفي غلته عن التكاثر والتناسل ولم تعدها القصص الا بروى مثيرة . تحترق فيها مشاعر من الرغبة والرهبة، اما الحقيقة فانها لم تكتشفها بعد . هذا ستمارس التجربة كاملة وتواقع الحياة

ترى ما طعم التجربة ؟ ما مذاقها ؟ ان القبلة تملأ النفس نشوة تجعل الانسان الى عوالم من المتعة تجعل الروح ترفرف في ملكوت الرقة والحنان ، آه لو كانت التجربة امتداد للذة القبلة ، لكانت اعظم مع الحياة .

وتقلب في سريرها وقد اشتد وجيب قلبها وثارت عواطفها وودت لو طاف بها النوم ، واراحها من هذه الانفعالات ، قالت لها امها وهي تسير معها الى غرفتها « نامي يا حبتي، فامامك غدا سهر طويل » . فراحت تهتف في اعماقها وان لم تحرك شفتاها « اريد أن انام . اريد أن انام . ولكن النوم خاصمني يا أماه . انام كيف انام وهذه آخر ليلة لي في هذا البيت ؟ انام ؟ كيف انام ومشاعري كلها ووجداني ، وكل كياني تهفو اليه . الى عصام .. حبيبي عصام .. الا ما الذ الليلة التي تسبق ليلة الزفاف ؟ انها تفيض بالسحر .. تفور بالقلق .. تمتلىء بالنشوة .. سحرها لذيذ . قلقها مشتهى . نشوتها حبيبة الى القلب الذي استيقظ وابى ان يغفو او يطوف به النعاس .

ومر الليل وهى تتقلب فى الفراش تجرى وراء خيالها وقلبها يخفق دون ان يتعب من اشتداد وجيبه ، وما لاح فى الافق الشرقى مولد النهار حتى هرع الى غرفتها بعض صديقاتها يتصايحن ويطلبن منها ان تنهض . فالنهار اقصر من أن يتسع لكل ما تود أن تجريه فيه.

واخذوها الى الحلاق وساقوها الى الحمام والساعات تمر سراعا وما احست الا بالليل قد أقبل وسحبوها الى غرفتها والبسوها ثوب الزفاف الابيض ، وجاء عصام ووضع ذراعه فى ذراعها ، وادا بها ترى فى وضوح عجيب خروفها الحبيب والجزار يسحبه ليذبحه . فدوى قلبها فى صدرها دويا هائلا ، غطى على دوى دقوف الزفاف .